الفصل السادس

6

بنية الحدث وبناء الشخصيات في رواية (نزيف الحجر) للكوني

obeikandl.com

تمهيد عن حكاية الرواية:

قبل الدخول في "نزيف الحجر"، نؤكد على نقطة هامة، وهي أننا ومن خلال رصدنا لـ"نزيف الحجر" وجدنا الرواية تحتوي على بعض الخصائص الجنسية([1])؛ التي تَسِم السيرة الشعبية العربية، ولقد كان تصورنا الأولي أننا أمام سيرة شعبية ولكن طبيعة الحاصل النهائي في كل (سيرة صغرى) جعلنا نغير هذا الرأي، ذلك أنه في حين تتكون السيرة الشعبية العربية[(2)] من: (دعوى- أوان - قراد - نفاذ)، تشتغل أغلب هذه السير على مكون الجزاء كمنتهى حتمي لكل الأفعال، تلك الأفعال ارتبطت بعمليات الصيد للودان والغزال.

إن أي قراءة لـ"نزيف الحجر" وحسب ما سنرى لا يمكنها إغفال صراع الفضاءات المكانية، ولا يمكنها إغفال تشكيل وطبيعة شخوص تلك الفضاءات المكانية وكذلك الطبيعة الخاصة للحكايات الداخلة في تركيب الرواية التي يفصل بينها على مستوى زمن الحكاية مدى طويل التي تتشكل من أحداث ذات طبيعة نوعية خاصة.

بنية الحدث عبر السير المتتالية:

تمتد سير "نزيف الحجر" السبعة من زمن قبل وجود الإنسان إلى الزمن الآني، وتتحرك في ذات الفضاءات المكانية، الصحراء الكبرى والجنوب والشمال الليبي، ولقد اختلفت تلك السير في طريقة تشخيصها عبر راوي الخطاب من سير وردت كمناص[(3)]، مثل سيرة (قابيل

الأول)، وسير أخرى تمثل الإطار الكلي للخطاب، وبغية ولوج البُنَى الحقيقية للخطاب لـ"نزيف الحجر" ننطلق كما يلي في شرح السير السبعة التي وجدناها من خلال متابعة زمن الحكاية الذي وجدناه ينقسم لسبعة أزمنة[4]، وفي كل زمان من تلك الأزمنة نجد أحداثاً ذات مكون بنيوي متشابه.

السيرة الأولى:

"انتظر حتى هل القمر وحكى له كيف أن الودَّان هو روح الجبال. كانت الصحراء الجبلية في قديم الزمان في حرب أبدية مع الصحراء الرملية... جمّدت الجبال في (مساك صطفت) وأوقفت تقدم الرمل العنيد في حدود (مساك ملت). فتحايل الرمل ودخل في روح الغزلان وتحايلت الجبال من جهتها ودخلت في الودَّان. منذ ذلك اليوم أصبح الودان مسكوناً بروح الجبال"[5].

إن السيرة الأولى محكية من قبل الراوي ضمن حوار منقول، يتشكل من خلالها سيرة ماضوية مندسة ذات منظور إشراكي، انطلاقاً من تعدد الآلهة في تلك السيرة التي تعتبر زمنياً الأولى، ذلك أنها قبل وجود البشر:

"لأن الله أنزل على الأرض بلوى أكبر قاتلت الاثنين معاً"[6].

إننا نلاحظ أن بنية الصراع هنا مكانية تحولت للفواعل، أي أننا أمام صراع شخص ومكان يرهنا[7] معا ويربطا عبر مفهوم:

(الجبـال ⟷ الصحراء)

(مساك صطفت ⟷ مساك ملـت)

(الودان ⟷ الغزال)

وبالنظر في الخطاب نضيف:

(أسوف ⟷ قابيل)

إننا بالطبع لن نمضي في تحليل بنية السيرة مضمونياً التي تنضح منها وبشكل علني مواقف خاصة للكاتب خلف المكتوب، ولكن سنحاول الخروج- من خلال هذه السِّيَر التي

وجدنا إنها تمثل بنية دالة على الصراع الداخلي الذي تجيش به بنية النص، الذي يعكس موقفاً للكاتب من البنية السوسيونصية[8] السائدة- إلى السيرة الثانية مذكرين بما يلي:

الحدث: صراع.

الشخصيات: (الجبال/ صحراء)، ثم (مساك صطفت/ مساك ملت)، ثم (الودان / الغزال).

الزمن: قبل وجود الإنسان على الأرض.

المكان: الجنوب الليبي.

التشخيص: الراوي الناقل لذلك من أحاديث الأب لابنه.

السيرة الثانية:

"وحدث إذ كانا في الحقل أن قابيل قام على هابيل أخيه وقتله، فقال الرب لقابيل: أين هابيل أخوك ؟. فقال: لا أعلم. هل أنا حارس لأخي ؟ فقال: ماذا فعلت ؟ صوت دم أخيك صارخ إليّ من الأرض. فالآن ملعون أنت من الأرض التي فتحت فاها لتقبل دم أخيك من يدك. متى علمت الأرض لا تعود تعطيك قوتها. تائهاً وهارباً تكون في الأرض"[9].

إننا في السيرة الثانية نتلقى إعادة لقصة "قابيل" و"هابيل" القديمة من خلال منقول وضع كمناص[10] في الصفحة السابقة للعمل، المنقول مأخوذ من (العهد القديم)، إن هذه السيرة تمثل عملية القتل الأولى على الأرض، ومن خلال ربط بين اسم "قابيل" كشخصية لهذه السيرة القديمة، وبين "قابيل" الآن، نجد أن هذه السيرة قد أوجدت لغرض توظيفها ضمن بنية الصراع الحاصل بين الطوارق - أصحاب لغة التيفيناغ - وغيرهم من الشماليين، ذلك أن "قابيل" الجديد الذي يجدد سيرة "قابيل" الأول، شمالي المنبت والتربية، وستتحول سيرته (السيرة رقم 6) لتخدم الصورة الكلية التي أرادها الراوي للخطاب ومن خلفه الروائي.

السيرة: "قابيل" يقتل "هابيل"، وعبر استخدامها كمناص يوجه الخطاب نجد ما يلي وذلك من خلال بقية السير.

(الشمالي "قابيل" يقتل أخته الغزالة)

أي أننا مازلنا نجد نفس الصراع برغم تعدد السير واختلافاتها الزمنية، وعبر كل ذلك

نجد ما يلي:

الحدث: ("قابيل" يقتل "هابيل").

التشخيص: مناص أوَّلي قبل بدء النص يعمل كأي مناص على إزاحة الخطاب لوجهة محددة وضعها الروائي "إبراهيم الكوني"([11]).

الشخوص: "قابيل" و"هابيل".

الزمن: بداية وجود الإنسان على الأرض.

المكان: غير محدد بالضبط (أي مكان على سطح هذه الأرض).

السيرة الثالثة:

السيرة الثالثة سندرسها ونتلمسها من خلال مكونين مناص أوَّلي موجه لآفاق الخطاب وللنص وذلك المناص عبارة عن آية كريمة من سورة الأنعام، وقبل أن نبدأ نؤكد على وجود خطأ في نقل الآية القرآنية التي تتحدث حسب ما أراد الروائي "إبراهيم الكوني" عن الأمم الأخرى المتماثلة معنا نحن البشر، إذ أن نص الآية (37) الكريمة من سورة الأنعام ليس بالشكل الذي كتبت به كمناص.

المكون الثاني لسيرة التآخي بين الإنسان والحيوان، أو ربما بين الجني والحيوان صورة الكاهن "متخندوش" والودان، التي صورت أمامنا في صورة نحتية، يطرح عبر صمتها وانتصابها حقيقة أرادها الراوي وخلفه الروائي، إن هذه الصورة ستتجلى نهائياً في السيرة الأخيرة عندما يقوم "قابيل" بقتل "أسوف" ويكتب بلغة (التيفيناغ) لغة الطوارق ما أراد ذلك النصب الوثني لـ"متخندوش" الكاهن أن يقوله، أن تلك الصخرة وذلك النصب قد شُخِّصَا لتوضيح العلاقة الخالدة التي أوجدها الراوي للخطاب بين الإنسان القديم الطارقي صاحب لغة (التيفيناغ) والوثني وبين الودان:

"الصخرة العظيمة تحد سلسلة الكهوف وتقف في النهاية كحجر الزاوية، لتواجه الشمس القاسية عبر آلاف السنين، وقد زينت بأبدع رسوم إنسان ما قبل التاريخ، على طول الصخرة الهائلة ينهض الكاهن العملاق، يخفي وجهه بذلك القناع الغامض، ويلامس بيده اليمنى الودان الذي يقف بجواره مهيباً، عنيداً، يرفع رأسه، مثله مثل

الكاهن، نحو الأفق البعيد، حيث تشرق الشمس وتسكب أشعتها في وجهيهما كل يوم. عبر آلاف السنين، حافظ الكاهن العظيم والودان المقدس على ملامحهما المحفورة، ملامحهما الواضحة، العميقة، الجليلة، الناطقة، في صلب الصخرة الصماء"[12].

نحن نتابع من خلال الراوي، العلاقة الأخوية الحميمة بين الكاهن والودان، الودان الذي طرح من خلال السيرة الأولى كروح للجبال.

إننا إذن أمام أسطرة[13] لكاهن الطوارق القديم وتمثالها لدرجة الإغراق، كما أن اللوح الحجري الذي أمامه هو اللوح المحفوظ (كما شخصه الروائي "إبراهيم الكوني").

"تقاطرت خيوط الدم على اللوح الحجري. فوق اللوح المدفون إلى نصفه في التراب كتب بالتيفيناغ الغامضة..... استمر نزيف الحجر على اللوح المحفوظ في حضن الرمال"[14].

إننا أمام تشخيص مزدوج وقوي لمكونين كما يلي:

1- مكون العلاقة الأخوية بين الكاهن و الودان.

2- مكون عظمة ذلك النصب وتلك العلاقة.

أي أننا أمام سيرة تطرح وتؤكد على خلفية أخرى للطوارق، خلفية ماضوية تمتلك لوحها المحفوظ، ولغتها (التيفيناغ) وودَّانها المقدس وكاهنها المنبئ للأجيال بالخلاص، ورمزها الإنسي الآني "أسوف" الذي تحول في اللحظة السابقة لبداية السيرة السابعة (الإطارية) في بداية الخطاب المشخص؛ تحول من الصلاة للقبلة إلى الصلاة للنصب وأحس براحة ورِضَا الكاهن[15]. إن صراع الفضاءات المكانية يتجسد عبر كل ذلك في تحول "أسوف" الطارقي من (الكعبة) قبلة جميع المسلمين إلى الصنم (قبلة الطوارق القديمة) تمهيداً لعزله عن كل ما ينافي أصله القديم.

ومن خلال كل ذلك نجد السيرة الثالثة، سيرة التآخي كما يلي:

الحدث: تآخي الودان و متخندوش.

الشخصيات: متخندوش والودان.

الزمن: زمن إنسان قبل التاريخ.

المكان: عند الصخرة في الجبل (المسماة صخرة متخندوش).
التشخيص: تكون التشخيص من مكونين:

أولهما: مناص قام به "إبراهيم الكوني" عبر آية قرآنية – إن كان بالطبع هناك خطأ في نقل الآية–، والثاني من خلال وصف فيه أسطرة لصورة الكاهن المنحوتة مع الودان ، وصف قام به الراوي المندمج في هذه المرحلة وبوضوح مع "أسوف" ابن تلك البطاح، الذي رأى في تقديس النصارى من السواح للنصب نتيجة لإيمانهم بالديانة القديمة ويؤكد على وقوفهم أمام العملاق المقنع، كما يقف المسلمين أمام الله.

السيرة الرابعة:

السيرة الرابعة هي سيرة والدي "أسوف" (أبوه وأمه) التي تتمثل في خيانة والده للنذر الذي نذره للودان في بداية حياته، ذلك الودان الذي أنقذه وهو معلق في الهاوية[16].

نقض النذر وأكل لحم الودان هو وزوجته، ثم بعد فترة مات ودان أخرٌ وهو يطارده منتحراً،[17] الوالد استمر معذَّباً وشاعراً بالألم، حتى ذهابه في يوم ما لمطاردة الودان و حاول قتلة، فنال جزاءه المتمثل في قتل الودان له وسقوطه في الهاوية، ولأنه نادم على قتله للودان حتى في لحظاته الأخيرة فإنه بعد الموت نال الجزاء الثاني وهو التوحد بالودان[18]، الأم كذلك نالت جزاءها عبر عملية التطهير التي يمارسها السيل.

داهمها السيل وماتت، السيل الذي استخدم في روايات "الكوني" كفاعل تطهير للأجساد والأشخاص من الخطايا.

إننا عبر السيرة الرابعة التي توزعت في المنتصف الأول من الخطاب الروائي، نجد أنفسنا باستمرار في تشخيص يؤسطر فيه الراوي الودان روح الجبال:

الحدث: لعنة تحل نتيجة لخرق النذر.
الشخصيات: والد "أسوف" وأمه والودان.
الزمن: منذ بداية القرن الماضي (1900) تقريباً إلى حدود ما بين (1915-1920).
المكان: الجنوب الليبي.

إن والد "أسوف" سيظهر له في اللحظات الحرجة في وجه الودان وذلك عندما يسقط في الهاوية ، أي أننا هنا أمام الوالد وقد تحول لمقدس (حسب النص) وذلك لتوبته عن قتل الودان ، إن ذلك يجعل أمامنا المكونات البنيوية التالية للحدث :

الأوان: وهو لقاء الودان.

القرار: وهو الرغبة في قتله.

النفاد: وهو موت الودان منتحراً.

الحال الأول: وهو الندم.

القرار الثاني: التوبة.

النفاذ الثاني: المداومة.

الجزاء الأول: موت الأب وتطهير الأسرة بالسيل.

الجزاء الثاني: ولاية الأب (تحوله لولي) من خلال ظهوره في عيني الودان.

والملاحظ عبر التقسيم السابق اختلاف البنية المدرجة هنا عن بنية الحدث في السيرة الشعبية التي حددها "سعيد يقطين": دعوى، أوان، قرار، نفاد[19]، ولا نجد ضمنها مكون الجزاء الذي تحدث عنه "غريماس" ضمن تقسيماته التجريدية لبنية المعنى[20].

وعبر "أسوف" الرمز – ابن المنطقة والحامل لشعلة البقاء لذلك النسل المفقود– وعقوبة الأب بالموت مقتولاً من الودان، وتطهير الصحراء للأم ستستمر رحلة الطوارق وسيرهم.

السيرة الخامسة:

السيرة الخامسة هي سيرة "أسوف" التي حدثت بعد وفاة أبيه، وقبل وفاة أمه، التي حصلت نتاجاً لقيام "أسوف" بمحاولة صيد الودان. ثم سقوطه في الهاوية.

ثم بعد خروجه من تلك الهاوية بواسطة الصبر، الصبر الذي هو كلمة السر للخروج من هاوية الرمز، أو هاوية الذات، ويتحقق الخروج ويصاحب ذلك رؤية الوالد في الودان، ثم التحول، إن السقوط في الهاوية هو رمز لتطهير "أسوف" من إثم محاولة قتل الودان رمز الجبال ورمز تلك المنطقة.

إن "أسوف" ذاته سيتوحد مع الودان عند الهرب من الإيطاليين متحولاً من بشري إلى ودان، ومحققاً من خلال ذلك تكرر ذلك الترابط بين الكاهن "متخندوش" وبين الودان.

الحدث: الخروج من الهاوية والتوحد بالودان.
الشخصية: أسوف و الودان.
الزمن: عشرينات القرن الماضي.
المكان: الجبل في الجنوب عند هاوية "متخندوش".

ونجد البنية التالية للحدث:
الأوان: وهو لقاء الودان.
القرار: وهو الرغبة في قتله.
النفاد: محاولة صيد الودان.
الجزاء الأول: وهو السقوط في الهاوية.
القرار الثاني: الصبر.
النفاذ الثاني: التعلم ونيل كلمة السر.
الجزاء الثاني: الولاية والتحول لوَدّان.

السيرة السادسة:

(سيرة قابيل) التي تمثل بنية تضاد لسيرة "أسوف"، وبذلك ينسب "أسوف" ابن الجبل والجنوبي الطارقي لـ"متخندوش" الكاهن والتوحد مع الودان كمملوك والوثنية كمعبود، فيما ينتمي قابيل لقابيل الأول، ويصبح بذلك رمزاً للشمال الذي قدم منه، رمزاً للآخر غير الطارقي الأبيض اللون.

تبدأ السيرة بمولد قابيل:

"قصته مع اللحم بدأت منذ الرضاعة. مات الأب مطعوناً بالسكين عندما حبلت به أمه. وماتت الأم متأثرة بلدغة أفعى بعد ولادته بأسبوع".[21]، إن "قابيل" سيستمر في التجلي أمامنا من خلال الراوي عبر السرد الذي يلخص سيرته المُنْتَقَاةُ له، حيث بعد أن قامت خالته

وزوجها بإرضاعه دم الغزالة، وتحولت بذلك الغزالة في تحول خرافي افتراضي لأخت له نتيجة لعهد قُطع بين الغزالة وخالته وزوجها، ثم بعد أن توفت خالته وزوجها أخذته القافلة وتبناه رجل القافلة التي أخذته والرجل الذي تبناه يدعى آدم، عندما ذهب في أحد رحلاته بعد تبنيه إلى "كانو" وعرض أمره على المشعوذين، قال له المشعوذ نبوءة خاصة:

"من فطم على دم الغزال في الصغر لن يستقيم حتى يشبع من لحم آدم في الكبر".

دهش آدم وصاح بالساحر الزنجي: يشبع من لحمي أنا ؟

قال الساحر دون أن يبدو عليه الضيق: قلت من لحم آدم ولم أقل من لحمك أنت!.

خرج من كوخ الساحر غاضباً. وقصد بعد يومين أشهر العرَّافين. سرد عليه قصة اللقيط من البداية حتى حادثة اللحم النيئ، فأذهله الجواب. قال بصوت واضح:

يا قابيل يا ابن آدم، لن تشبع من لحم ولن تروى من دم، حتى تأكل من لحم آدم، وتشرب من دم آدم.

.....

أما آدم فتوغل في رحلة تجارية إلى الأدغال.

فمزقته قبائل "يم يم" بالحراب، وقطعته، وأكلت لحمه نيئاً. قبائل "يم يم" مشهورة بحبها للحم الأبيض"[22]. إننا ومن خلال المستقطع السابق نجد أنفسنا في الدعوى النصية لهذه السيرة التي تكررت على لسان ساحر ثم على لسان عرَّاف.

وتمثل هذه الدعوى نفس المكون البنيوي الموجود في السير الشعبية العربية والمسمى الدعوى[23]، حيث تلقى من خلال عالم بالغيب، وتأتي تفسيراً لحلم أو حدث غريب، وتتعلق بالمستقبل. إن هذه الدعوى النصية، هو ما جعلنا نعتقد في البداية أننا أمام (سيرة شعبية مصغرة) ولكن ما حدث بعد تحقق النبوءة من جزاء، جعلنا نعدل عن هذا الرأي، ولنلحظ أن قبائل "يم يم" – حسب النص– تحب لحم آدم الشمالي الأبيض، أي أننا بهذا الشكل أمام طرح مباشر لمكونات المجتمع النصي الشمالي الأبيض والجنوبي الأسمر.

"قابيل" سينمو ويترعرع صياداً للغزلان، يبطش بها أينما وجدت، ويساهم بمعونة

المستعمر (جون باركر ضابط القاعدة) في القضاء على آخر غزالة أمامه وعبر تشخيص مؤسطر لشناعة شخصيتة في خاتمة السيرة نجده في آخر هذه السيرة يذهب وصديقه "مسعود" مع الأمريكي "جون باركر" والسائق، ويقتل الغزالة التي تم عهد الأخوَّة بينه وبينها مع خالته التي أصبحت أخته بالدم. يقتلها ويأكل من لحمها وبذلك يحل الجزاء وهو اللعنة:

"في تلك الليلة، لم يقتل قابيل أبن آدم أخته فقط، ولكنه أكل من لحمها أيضاً"[24].

إن قابيل وهو يدور مدمناً فاقداً للحم الغزلان، سيذهب تجاه الجنوب ليحدث الصدام وتبدأ السيرة؛ السيرة السابعة والأخيرة.

الحدث: قابيل يقتل أخته الغزالة.

الشخصيات: قابيل ومسعود وجون باركر وسائقه والغزالة وأمها وآدم أبو قابيل والسحرة.

الزمن: منذ أواخر العشرينات في القرن الماضي حتى الستينات من نفس القرن.

الفضاء المكاني: الشمال – فضاء مفتوح في الشمال والصحراء الشمالية.

الدعوى: قابيل لا يشبع من اللحم حتى يأكل لحم آدم.

الأوان: وهو لقاء الغزالة أخته حسب العهد.

القرار: وهو الرغبة في قتلها.

النفاد: قتل الأخت وآكل لحمها.

الجزاء: الطمس واللعنة.

السيرة السابعة:

هي سيرة قيام "قابيل" بصلب "أسوف" عند النصب الوثني لـ"متخندوش"، وذبحه، إنَّ دم "أسوف" وهو يسيل فوق النصب سيجعل عبر توحده بدم الودان من الحروف التيفيناغية تنطق الكاهن الأكبر بنبوءة جديدة لسيرة منتظرة، إن الرمال عند النصب تتحول إلى لوح محفوظ[25]. إن السماء ستسودّ وستحجب شمس الصحراء وتنتهي السيرة، لتبدأ سيرة أخرى.

إن السيرة السابعة هي سيرة تأطيرية، لكل الخطاب الروائي، إنها تبدأ منذ الصفحة الأولى من خلال سماع "أسوف" لهدير السيارة:

"سمع هدير المحرك البعيد، فقرر....."[26]. وذهاب "أسوف" ليصلي أمام النصب الوثني (قطع صلاته، ولعن الشيطان، وذهب ليؤدي الفريضة في مواجهة أهم صخرة في وادي "متخندوش""[27].

بحيث تحل - حسب الخطاب الروائي- اللعنة على "قابيل" قاتل أخته الغزالة، ويتوحد "أسوف" مع الودان تاركاً الكعبة متوجهاً للنصب الوثني.

إنّ "أسوف" بعد تحوله سيقابل "قابيل" وسيتصارع كل من "أسوف" الأسمر ابن المكان والعابد للوثن مع قابيل الشمالي.

إن "أسوف" سيقتل في صراعه مع "قابيل"، وسيتم صلبه أمام النصب ليعيد للصحراء من خلال عودة "قابيل" في روح شمالي، يعيد لها وثنها المتكلم وودانها المقدس وتحل البركة التي يرغبها الراوي وخلفه الروائي، كما أن هذه الرمال وحسب الرموز المبثوثة في النص تمتلك لوحها المحفوظ المختلف عن اللوح المحفوظ الذي يؤمن به الشمالي، ذلك اللوح وحسب ترميزات الراوي هو رمال الصحراء الصامتة التي أنطقها دم - القربان أسوف - وأنطقها بالوعد المندس منذ أزمنة لتلك الفئة من الناس.

الأوان: تقييد "أسوف" عند النصب.

القرار: قتل "أسوف".

النفاد: ذبحه على النصب الوثني.

الجزاء: الطمس واللعنة على "قابيل" وتحوله لملعون والفوز لـ"أسوف" وتحوله لقديس يكتب دمه نبوءة الصحراء وينطق لوحها المحفوظ، "أسوف" قديس و"قابيل" لعين.

خلاصة وتحول من المستوى الحكائي للنصي:

إننا وبعد البحث في تلك السير السبعة المكونة لنص "نزيف الحجر"، نجدها تبني كما يلي:

	ترتيب السير	الفضاء المكاني	المدى	الزمن (كترتيب)	الجزاء
1	سيرة صراع الجبال والرمال	الصحراء الليبية	سيرة ومضة	الأقدم	هبوط الإنسان
2	سيرة "قابيل" و"هابيل"	غير معروف	سيرة ومضة (مناص)	قديم جداً	الطرد واللعنة
3	"متخندوش" والودان	الصحراء الليبية الجنوبية عند الجبل	سيرة صامتة (ومضة)	قديم جداً	التوحد والخلود
4	سيرة والدي "أسوف" والودان	الجنوب الليبي مساك صطفت	سيرة مرحلة نصية	أول القرن الماضي	اللعنة ثم التطهير
5	سيرة "أسوف" والودان	الجنوب الليبي مساك صطفت	سيرة مرحلة نصية	ثلاثينات القرن الماضي	التوحد ثم التحول للولاية
6	سيرة "قابيل" والغزالة (أخته)	الشمال الليبي	سيرة مرحلة نصية	منذ ثلاثينات القرن الماضي وحتى الستينات	اللعنة
7	سيرة "أسوف" و"قابيل"	الجنوب الليبي مساك صطفت	سيرة إطارية للنص كله	الستينات من القرن الماضي	لعن وهلاك لـ"قابيل" فوز نهائي لـ"أسوف"

إننا عبر الجدول السابق نرى أن السيرة الإطار هي سيرة "أسوف" و"قابيل" وأنها تؤطر الخطاب الكلي لكل السير الأخرى، كما نلاحظ أن هناك مكون بنيوي واضح أسس من خلاله "إبراهيم الكوني" هذه السير المتتالية، ونؤكد هنا أنه من خلال متابعتنا لأعمال "إبراهيم الكوني" لاحظنا اهتمامه بالبنية الرقمية داخل النص فعدد السير التي ظهر فيها "أسوف" لوحده (13) وكذلك عدد السير التي ظهر فيها "قابيل" (سواء مع "أسوف" أو بدونه) (13) أيضاً وهو ما يبدو أن الكاتب يسعى للترميز للعنة من خلال هذا الرقم الذي تتطير منه المجتمعات الغربية.

بنية التضاد بين الشخصيات في الرواية (من الحكاية للنص):

يتأسس الصراع هنا في الرواية بين الشمالي والجنوبي، وهو صراع قديم حسب الرواية، بدأ قبل وجود الإنسان، قام فيه "إبراهيم الكوني" بتصوير عظمة وجلال الشخصية الجنوبية (الطارقية) أمام الشخصية الشمالية التي كانت تظهر باستمرار في هذا النص بشكل سلبي بل وغاية في الشناعة، إن الرواية هي مادة خام لرؤى أيدولوجية ومواقف مسبقة من شخصيات تقطن فضاءً مكانياً واحداً هو الفضاء الليبي، عكس عبرها الكاتب وبوضوح التركيبة التي أرادها هو لشخصياته ومن خلال كل ممكنات النص بداية بالعنوان، مروراً بالمناصات، وطرائق التشخيص وتكوين الشخصيات عبر الماضي حيث تحول الشمالي للعين باعتباره ينتسب لـ"قابيل"، وتحول الجنوبي لقديس وشهيد باعتباره ينتمي لـ"هابيل".

محاور بناء الشخصيات في الرواية:

1- عبر المكون التربوي الذي يحصل أمامنا:

كان هناك حرص واضح على طرح المكون التربوي الذي خضع له "أسوف"، فهو قد تلقي تربية مختلطة بين تربية إسلامية ذات بعد صوفي من خلال والده وبين مكون أخر وثني وإشراكي من خلال قصة صراع المناطق التي تأسست منها السيرة الأولى، ونحن هنا نرى أن في تقديم زمن حكاية القصة الإشراكية طرحاً لموقف الروائي الذي يبدو أنه يرغب في طرح قصة التعدد السابقة الذكر كجذر عميق للشخصية الجنوبية، كما أن الراوي بهذا الشكل وهو يعظم من خلال رؤية "أسوف" مكونات تلك الذوات يخرج هو نفسه من شرك السيطرة، لقد جسد أمامنا الراوي بألعابه السردية وتماهيه مع وعى الشخصية كل ما يرغب فيه دون أن يتورط في شرك التقريرية.

2- البعد الديني للشخصية الجنوبية الذي يتأسس أمامنا عبر تجارب الشخصية:

تتأسس الشخصية الطارقية أمامنا – أسوف – من تعليمات الأب – والد أسوف – المختلطة مع التعاليم التي تلقّاها هو ذاته التي تحققت له هو ذاته من خلال تجربته الشخصية، فـ

"أسوف" الذي تعلم من النصارى تقديس الكاهن سيتحول في اللحظة الحرجة عن قبلته وهي الكعبة للنصب الوثني المكون من صورة الصنم الذي ترابط مع الودان، وهو بذلك يتهيأ لكي يتحقق له عند وثنه الذي ابتدعه له الكاتب أن يتحول إلى قديس – يشابه المسيح المصلوب حسب مفهوم النصارى– ويكتب دمه على لوحه المحفوظ وعد الصحراء الخالد بالخلاص.

3- آليات التناص:

التي وظفت لخلق الشخصية الطارقية من خلال الاستدعاء الحاصل لشخصية "هابيل" باستمرار.

آليات بناء الشخصية الشمالية:

1- الدعوى النصية: استخدام الدعوى وهي أحد مكونات البناء في السيرة الشعبية لخلق لعنة تحيط بقابيل منذ مولده، التي سبق أن فصلنا فيها ضمن السيرة السادسة، والحرص على إظهار لونه الأبيض داخل النص من خلال الحكي عن قبائل "يم يم" التي تحب اللحم الأبيض في مقابل "أسوف" الأسمر.

2- استخدام كل ما هو منحط ومنفر مع شخصية قابيل فحتى اللغة التي يتكلم بها قريبة من الشعبية أو السوقية مثل: (أنت شن سماك ربي) وغيرها مما يعكس انطباعاً سيئاً عنه.

3- التشخيص بواسطة الأسطرة عكسية عن توحش "قابيل" وحبه لحم الغزلان وحرصه على الصيد.

4- التناص الحاصل بين قصة "قابيل" وقصة "قابيل" الأول، التي تمّ وضعها كمناص أول قبل العمل كما تمّ تحققها أمامنا من خلال الحكاية.

بنى السِيَرْ (الأحداث) المركزية وعلاقتها مع بنى الشخصيات:

حقق "إبراهيم الكوني" من خلال حكايته السابقة وعبر راويه – والسير المنتهية بمكون

الجزاء البنيوي- طرح قصص تحمل طابع خاص أقرب للقصص الديني أو الوعظي، حيث تأسست أمامنا عبر الحكايات السابقة ثلاثة حكايات مركزية كانت تتكرر وهي كما يلي:

- حكاية الصراع بين الشمال والجنوب التي تابعناها في القصة الأولى.
- حكاية الصراع بين قابيل وهابيل و اللعنة التي أصابت "قابيل".
- عظمة وقدسية الودان الذي تآخى معه الكاهن.

إن هذه الحكايات الثلاثة السابقة الذكر ستتكرر مرة أخرى كما يلي، حيث ستعاد كما يلي:

1- قصة عظمة الودان من خلال السيرة الرابعة والخامسة وتحدث في الخامسة عملية تكرار لقضية التآخي بين الودان والكاهن من خلال "آسوف" وتحوله.

2- قصة "قابيل" الملعون تتكرر من خلال "قابيل" الشمالي.

3- قصة صراع المناطق تتكرر من خلال "أسوف" و"قابيل" ويعتدى الشمالي "قابيل" على الجنوبي "أسوف" وتنتهي الرواية باللعنة التي حلت على الشمالي والفوز الذي ناله الجنوبي.

4- قصة الصلب بالمفهوم النصراني لها، التي تكررت كان تأسيسها من خلال طرح مفهوم – عبر التلميح من خلال أحاديث "جون باركر" مع الشيخ، وكذلك من خلال تشابه وثني الطوارق القدامى مع النصارى في العبادة[28] – لـ"أسوف" يتشابه فيه مع ما شكله له النصارى في ثالوثهم المعروف ومن خلال عملية صلب "أسوف" في نهاية العمل الروائي.

هوامش الفصل السادس:

(1) نظر جان ماري شيفر، الجنس الأدبي، منشورات اتحاد الكتاب، (دراسات) (www.awu-dam.org)

(2) بنينا تصورنا على التصنيف الجنسي الذي مارسه "سعيد يقطين" من خلال كتابية، (الكلام والخبر، قال الراوي) للسيرة الشعبية العربية التي يرى فيها أحد أهم مكونات السيرة الشعبية العربية، (الدعوى النصية) المتمثلة في الرؤيا التي تعمل السيرة كلها على تحقيقها، وتتفاعل كل القوى لإنجازها، وتتكون بذلك السيرة من مكون رباعي (وجدت في "نزيف الحجر" نفس المكون، مع البحث تبين أنه يتميز بوحدة الجزاء في آخر كل سيرة داخلية مما جعلنا نشبه السيرة هنا بالسيرة الأسطورية).

(3) يقصد بكلمة مناص في السرديات كل العناوين والإهداءات الأولى وكل ما كتب قبل بداية العمل، ويشتغل المناص كمادة تكشف بعض من رمزية العمل الروائي والقصصي، للمزيد في هذا الموضوع انظر:
سعيد يقطين، انفتاح النص الروائي، ط.2، 2001م.

(4) نقصد بالزمن هنا زمن الحكاية الأصلية في ترتيبه الخطي، وهو يختلف بالطبع عن زمن الخطاب المتبدل والمتغير.

(5) رواية نزيف الحجر، ص26.

(6) رواية نزيف الحجر، ص27.

(7) نقصد بالترهين ترابط مكونات الحكاية على المستوى السطحي أو المستوي العميق.

(8) بنية سوسيونصية، حسب تعريف سعيد يقطين للبنى السوسيونصية التي يرى فيه أن الكاتب وهو يكتب إنما يكتب ضمن نسق ثقافي عام اجتماعي في تكوينه ثقافي في تجلياته وهو من خلال كتابته – ومن خلال مفهوم التناص – يتخذ موقفاً ما من تلك البنى القائمة.
سعيد يقطين، انفتاح النص الروائي، ط.2، الفصل الثالث، 2000م.

(9) رواية نزيف الحجر، ص5.

(10) تسمى العناوين والإهداءات والكلمات المدرجة قبل النص بمناص، وتعتبر رسالة خاصة موجهة من الكاتب للقارئ لحل بعض شفرات النص أو لتوجيه الخطاب نحو وجهة محددة.
المرجع السابق، الفصل الثاني.

(11) "في تلك الليلة، لم يقتل قابيل ابن آدم أخته فقط، ولكنه أكل لحمها أيضاً" (ص130).

(12) رواية نزيف الحجر، ص8.

(13) نقصد بالأسطرة خلق هالة أسطورية حول شيء ما أو خلق أسطورة عبر وصف مفخم للموصوف.

(14) رواية نزيف الحجر، ص147.

(15) رواية نزيف الحجر، ص9.

(16) رواية نزيف الحجر، ص49.

(17) رواية نزيف الحجر، ص25.

(18) رواية نزيف الحجر، ص20.

(19) سعيد يقطين، قال الراوي، الفصل الأول، 1997م.

(20) سعيد بنكراد، السيميائيات السردية، تانسيفت للطباعة والنشر، 1994م، "حيث ينقل أراء "غريماس" في هذا المجال ويشرحها.

(21) رواية نزيف الحجر، ص91.

(22) رواية نزيف الحجر، ص92.

(23) سعيد يقطين، قال الراوي، 1997م، (ص36) عن مفهوم الدعوى النصية.

(24) رواية نزيف الحجر، ص130.

(25) رواية نزيف الحجر، ص145–147.

(26) رواية نزيف الحجر، ص70.

(27) رواية نزيف الحجر، ص7.

(28) رواية نزيف الحجر، ص15، "النصارى يقفون أمام العملاق المقنّع كما يقف المسلمون بين يدي الله. ولكن أباه قال إن الجنّي جده أيضاً"، وكذلك ص 116 حيث ينقل عبر شخصيته "جون باركر" مفاهيمه الحلولية من كتابات الزن البوذية التي ترمز بلا شك لأسوف وتجعله منه كمسيح النصارى.

opeikandi.com